من الأدب الانجليزي

الشعر عند ماكولى

للأستاذ محمود الخفيف

للكاتب الانجليزي العظيم اللورد ماكولى طريقة انفرد بها في عرض آرائه والدفاع عنها، فقد أوتي بسطة في العلم، وامتاز الى جانب عبقريته بقريحة وقادة، وذاكرة عجيبة، هذا الى روعة في الأسلوب، وسلامة في المنطق، ولباقة في سوق المقدمات وضرب الأمثلة واستخلاص النتائج.

كتب رسالة عن الشاعر ملتن، وضح فيها آراءه في الشعر وتناول الموضوع من جميع نواحيه، ولقد أشار في رسالته الى بعض المسائل التي يختلف فيها شعراؤنا وأدباؤنا اليوم.

كان ماكولى شديد الاعجاب بالشاعر الكبير، ولذلك أحفظه ما كتبه النقاد عنه وانبرى للرد عليهم في حماسة استثارت عبقريته وأيقظت قريحته. رأى هؤلاء النقاد يسلكون السبل الملتوية للحط من قيمة الشاعر، فبينما هم يسلمون في غير تحفظ بأن آثاره جديرة بأن تأخذ مكانها بين أعظم الآثار التي أنتجتها العقول البشرية، اذا بهم يأبون على الشاعر أن يتبوأ مكاناً بين فحول الشعراء كهومير ودانتي وفرجيل وأضرابهم، وحجتهم في ذلك أن هؤلاء نشأوا في عهد طفولة المدنية، فلم يكن لهم من المعارف مثل ما كان لملتن الذي نشأ في عهد مستنير وتلقى علماً منظماً، واطلع على كثير من آثار المتقدمين، ولكنهم على الرغم من ذلك قد تركوا للعالم آثاراً تجل عن المحاكاة، فكانت شاعريتهم طبيعية تتجلى فيها الاصالة، وتشع منها العبقرية، ولا يمكننا على ذلك أن نضع ملتن في صفهم، بل إنه لينبغي علينا اذا أردنا الانصاف أن نحسب على ملتن، عند قياس شاعريته، كل ما أتيح له من ظروف طيبة.

يسرد ماكولى آراء خصوم الشاعر ثم يمضي في حماس ويقين أنه على الرغم مما يقولون يقرر أنه ما من شاعر قد اضطر أن يغالب من الظروف أسوأ مما اضطر ملتن الى مغالبته، حتى لقد كان يخيل الى الشاعر أنه خلق متأخراً عما كان ينبغي له بأجيال، ذلك لأنه كان يحس أن شاعريته لم تستفد شيئاً من الثقافة التي تثقفها، بل إنه كان يتطلع بعين ملؤها الاسف الى تلك العصور التي فاتته، عصور الكلمات البسيطة والتأثير العميق!

يأخذ ماكولى في الدفاع عن رأيه هذا فيجره الدفاع أولا الى العلاقة بين العلم والمدنية. ما حال الشعر في عصور التقدم؟ وكيف كان حاله في العصور السالفة؟ وهل لتقدم المدنية تأثير مطرد فيه؟

يقرر ماكولى أنه كلما تقدمت الحضارة، انحط الشعر تبعاً لذلك التقدم، ولهذا فانه اذا أعجب بتلك الآثار الشعرية التي جادت بها الأخيلة في العصور المظلمة، فليس اعجابه بها قائماً على أنها وليدة تلك العصور، كلا. فانه يعتقد أن البرهان القاطع على العبقرية انما هو قصيدة عظيمة تظهر في عصر من عصور المدنية والتقدم، في عصر من عصور الفلسفة والتفكير.

وان الذين ينكرون هذا المبدأ ليخدعون أنفسهم في رأيه، ذلك أنهم ينظرون الى الفنون نظرتهم الى العلوم التجريبية والعقلية، فيقيسون الجميع بمقياس واحد متخذين تقدم العلم والفلسفة دليلا على تقدم الشعر والتصوير مثلا، وفات هؤلاء أن الفرق شاسع بين الفن والعلم، بين الخيال والتفكير، بين الحلم والحقيقة.

نسي هؤلاء أن العلوم تتقدم بتقدم العصور لأن أهل كل عصر يبتدئون دراستهم من النقطة التي وقف عندها أسلافهم، ومن ثم كان التقدم العلمي تدريجياً، وكلما تقدمت العصور، كان من أيسر الأمور على من رزق حظاً من الذكاء تحصيل العلم، فان أي شخص عادي الآن ليستطيع أن يحصل من قوانين الرياضة في بضع سنين أضعاف ما استطاع نيوتن العظيم تحصيله في نصف قرن قضاه في الكد والتأمل.

ولكن الأمر على خلاف ذلك في الفنون كالموسيقى أو التصوير أو النحت، وعلى الأخص في الشعر، فان تقدم الانسان في الاختراع، قد يساعد على تحسين الأدوات التي يستعملها كل من الموسيقار والنحات والمصور، ولكن اللغة وهي أداة الشاعر تكون أكثر ملاءمة لفنه وهي في حالتها الفطرية الساذجة.

هذه الآراء التي يعرضها ماكولى في تحديده العلاقة بين الشعر والمدنية، تسوقه الى نقطة أخرى قريبة من هذه، أعني بها

العلاقة بين الشعر والفلسفة . فالفلسفة من عمل العقل والتحليل والتمحيص والموازنة والاستقراء والاستنباط ، وتلك كلها أشياء تتقدم بتقدم العصور ، اذا فما موقف الشعر من الفلسفة ؟ يتساءل ماكولى هل هما شئ واحد . وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون الشاعر فيلسوفاً والفيلسوف شاعراً ؟ وهى كما ترى نقطة ثار فيها الجدل بين كثير من الأدباء فى الشرق والغرب ، فبعضهم لا يجد غضاضة فى الجمع بين الشعر والفلسفة فى شخص واحد ، بل وفى موضوع واحد تناوله النظم ، ومن أجل ذلك تراهم يطلقون لقب الشاعر الفيلسوف على بعض الأشخاص .

ولكن ماكولى يرى أن الشعر والفلسفة شيئان ، بل نقيضان ، والجهل بهذه الحقيقة فى زعمه جهل بمعنى الشعر وجهل بأغراضه

فهو لا يعنى بالشعر كل كلام منظوم ، لا ولا كل جيد من النظم ، بل انه اذا أراد الشعر بمعناه الحقيق ، ليستبعد كثيراً من الكلام المنظوم ، الذى ربما نال حظاً من الاعجاب فى مجال آخر ، وانما يقصد ماكولى بالشعر ، تلك القدرة على الوصول بواسطة الكلمات الى ما يصل اليه المصور بواسطة الألوان ، ثم ذلك الجو أو ذلك السحر الذى ينتزع الانسان مما يحيط به ويطير به على أجنحة الخيال الى وديان نسيجة مليئة بالرؤى والأطياف ، ثم ذلك التأثير القوى ، وتلك الحرارة أو ذلك الحماس المشبوب ، الذى يجعل المرء طوع قلبه ، وان هو خالف فى ذلك منطقه وقواعد فكره .

ذلك هو الشعر فى جوهره وطبيعته ، وعلى ذلك فان كثيراً من النثر الذى تتحقق فيه هذه الصفات ليعد من روائع الشعر ، فاذا ما أردنا الشعر فى الاصطلاح التزمنا النظم ، وبواسطة الوزن والقافية والمهارة فى التوقيع ، نستطيع أن نجمع بين الشاعر والموسيقار ، كما جمعنا بين الشاعر والمصور .

وشتان بين هذا وبين الفلسفة . نعم شتان بين عمل العقل فى التفكير والتحليل ، وبين اختلاج النفس بالأحاسيس وامتلاء المخيلة بالصور ، وجيشان القلب بالعاطفة ، وامتلاء المحاجر بالدموع ، أو إشراق الوجوه بالفرح ، واهتزاز الهيكل كله بالموسيقى .

واذا كان الأمر كذلك فما أعجب الخلط بين الشاعر والفيلسوف فى موضوع لا يمكن إلا أن يكون واحداً من اثنين : فاما الى العقل وإما الى القلب !!

يستخلص ماكولى من ذلك أن الرجل اذا مال الى التفكير والتحليل كان أقرب الى الفلسفة منه الى الشعر ، واذا أسلس العنان لخياله وأحلامه ، كان الى الشعر أقرب منه الى الفلسفة ، وقل فى الأمم مثلما تقول فى الأفراد .

فالأمم كالأفراد ، تبدأ أولاً بالأدراك الحسى ، ثم بعد ذلك ترقى الى الأدراك العقلى أو المعنوى ، وبعبارة أخرى ، تبدأ أولاً بفهم الصور الجزئية ، ثم تتدرج منها الى الحدود أو النصوص العامة ، وعلى ذلك كانت لغة المجتمع الراقى لغة فلسفية ، ولغة المجتمع نصف المتمدين لغة شعرية ، وان التطور الذى يطرأ على اللغة من تذليلها وتوسيعها واعدادها لمقابلة التقدم الفكرى ليعد شديد الخطر على الشعر عظيم الفائدة للفلسفة .

وعلى ذلك فانه بقدر ما تتزايد معارف الناس وبقدر ما يتزايد تفكيرهم ، بقدر ما ينصرفون عن الجزئيات ويقبلون على الأنواع ، وحينئذ يصلون الى نظريات راقية ، يبنيهم فى الشعر لا ينتجون إلا آثاراً سقيمة قوامها العبارات الغامضة ، بدل الصور الناطقة ، والحجج الجافة بدل الأخيلة الرائعة ، أو بعبارة أخرى يكون قوام عملهم فى الشعر الصفات المجردة بدل الأشخاص والأرواح الحية .

نعم إن هؤلاء المفكرين قد يكونون أكثر ممن سبقوهم مقدرة على تحليل وفهم الطبيعة البشرية ، ولكن التحليل ليس من عمل الشاعر ، فعمل الشاعر أن يصور وليس من عمله أن يحلل أو يشرح ، والتحليل فى الفنون يذهب روعتها ، ويبطل سحرها ، وموقف الشاعر من الفيلسوف موقف المصور فى صالته من الطبيب أمام مشرحته ، كلاهما يعرف أجزاء الجسم ولكنهما لا يقصدان غرضاً واحداً ، بل ولا يركبان فى زورق واحد ، ولقد يفهم الشاعر الفضائل العامة والطبيعة البشرية كما يفهمها الفيلسوف ، ولكنه فى تلك الحالة لا تؤثر عقيدته فى شعره إلا كما يؤثر علم المصور بنظام الدورة الدموية فى فنه اذا هو حاول أن يرسم تساقط دموع « نيوبا » أو توقد خد « أورورا »

ولو أن شكسبير مثلا قد وضع كتاباً فى الدوافع التى تسيطر على سلوك الانسان لما كان من المحتمل بأى حال أن يجىء كتابه جيداً ، ولما كان من المحتمل أن يحوى من التحليل ومتانة الحجج مثل ما يحويه كتاب يخرجه عالم من العلماء المعاصرين ، ولكن أى عالم لعمرى يستطيع أن يخلق « اياجو » نعم ! أى عالم يستطيع

مع قدرته على تحليل الشخصيات الى عناصرها أن يضم من هذه العناصر ما يريد ليخرج لنا فى النهاية رجلا مثل « اياجو » لهخلق خاص وطبيعة خاصة وسلوك خاص ؟

ولا يكتفى ماكولى بهذه البراهين التى ساقها للتفرقة بين الشعر والفلسفة ، بل انه ليخطو الى أبعد من ذلك فيقول انه ربما كان من المستحيل على أى امرئ أن يكون شاعراً لا ولا أن يفهم الشعر مالم يتجرد بعض الشىء من حدة عقله ، أو بعبارة أخرى مالم يكن له نصيب من خمود الذهن ، اذا صح هذا التعبير وجاز لنا أن نسمى تلك القوة العجيبة التى تملأ قلوبنا بهجة خموداً ذهنياً.

نعم ان الصدق فى الشعر أمر جوهرى ولكنه « صدق الجنون » ذلك لأننا فى الشعر نقيم الجدل الصحيح على المقدمات الزائفة ، فبعد أن نضع الفروض الأولى ، يسير كل ما بعدها فى توافق واتزان ، ولكن قبول تلك الفروض يحتاج الى نوع من التصديق قد لا يتيسر لنا إلا اذا ألغينا عقولنا مؤقتاً ، ومن ثم كان الأطفال أكثر الناس خيالاً ، فانهم يستسلمون الى الوهم ، فاذا ما عرضت أية صورة خيالية أمام أذهانهم عرضاً قوياً فانها تفعل بنفوسهم ما تفعله الحقيقة . وليس ثمة من رجل مهما بلغت قوة احساسه يتأثر بقراءة « هملت » أو « لير » كما تتأثر فتاة صغيرة بقصة الذئب والجدة العجوز ، ان تلك الفتاة تعلم حق العلم أنه ما من ذئب فى انجلترا ، وأن الذئاب لا تتكلم ، ولكنها على الرغم من يقينها هذا تصدق فتبكى فترتعد ، وذلك هو سلطان الخيال على العقول التى لم يصقلها العلم أو على الأمم فى عهد طفولتها .

ولن يترك ماكولى أدلته دون أن يتوجها بتشبيه بديع ، فهو يشبه الشعر بالفانوس السحرى ؛ فالشعر يرسم أطيافه فى مخيلة الشاعر ، أو كما يسميها ماكولى « عين العقل » كما يرسم الفانوس السحرى صوره فتتمثل بها العين الحقيقية « عين الجسم » وكما أن الفانوس السحرى لا يؤدى عمله على الوجه الأكمل إلا فى الحجرات المظلمة ، فكذلك الشعر لا يؤثر تأثيره القوى إلا فى العصور المظلمة ، عصور العقول الساذجة الفطرية التى لم تنيرها الفلسفة والعلوم . وكلما انتشر نور العلم وتمكنت العقول من استنباط الأصول وتقرير القواعد وكشف النقاب عن حقائق الحياة ، تضاءل تبعاً لذلك عمل الخيال وتزايل تأثير الشعر ، وحالت ألوانه ، وتلاشت أطيافه ، وهكذا ترى الفلسفة والشعر على طرفى نقيض .

تلك هى خلاصة آراء ماكولى فى العلاقة بين الشعر والمدنية وبين الشعر والفلسفة . ولعلى أعرض على القارئ فى القريب رأيه فى شاعرية ملتن ، فقد تعرض فى ذلك إلى كثير من الأفكار التى تدور حول الشعر ولغته ومحسناته ومراميه ؟

محمود الخفيف

فى الأدب الفرنسى

٦ ـ الدوق دى لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

فلسفته :

لما عجز لاروشفوكو عن تحقيق آماله ويئس من ارضاء طموحه ، صدف عن حياة الاجتماع الصاخبة ، وانطوى على نفسه وحللها ، واستعرض فى ذهنه حوادث الماضى وأخلاق الناس الذين عاشرهم ولاحظهم ، ثم طلع عليهم بمواعظه القاسية الأليمة التى تظهر عواطفهم فى صورة دميمة ، وتجعل لجميع أعمالهم مصدراً واحداً هو الأثرة . وليس عجيباً أن يقسو هذا الرجل فى الحكم على نفسه وعلى الناس ، وأن يقوده التفكير الى فلسفته اللاذعة ، لأن التحليل لا يتيح التسامح ، والغلو فى الشك يؤدى الى حب النفس . وأعتقد أن آراءه فى معاصريه وبيئته ، تنطبق على الانسان فى كل زمان ، مع أن الصور التى يرسم البحر أثناء العاصفة فقط ، لا يعطينا عنه إلا فكرة ناقصة الى حد بعيد . ولكى يكون الحكم على الجماعة صحيحاً ، يجب ملاحظتها ودرسها فى حالتى الهدوء والشغب ، ولكن لاروشفوكو رأى الناس فى عصره يعملون مدفوعين بمصلحتهم الذاتية ، كما هو الحال دائماً أثناء الاضطراب الداخلى والحروب الأهلية ، فاستخلص من ذلك أن المصلحة الذاتية التى يسميها عزة النفس أو الأثرة هى الباعث على جميع الأعمال الانسانية ، وينبوع العواطف البشرية . ولا شك فى أن الانسان